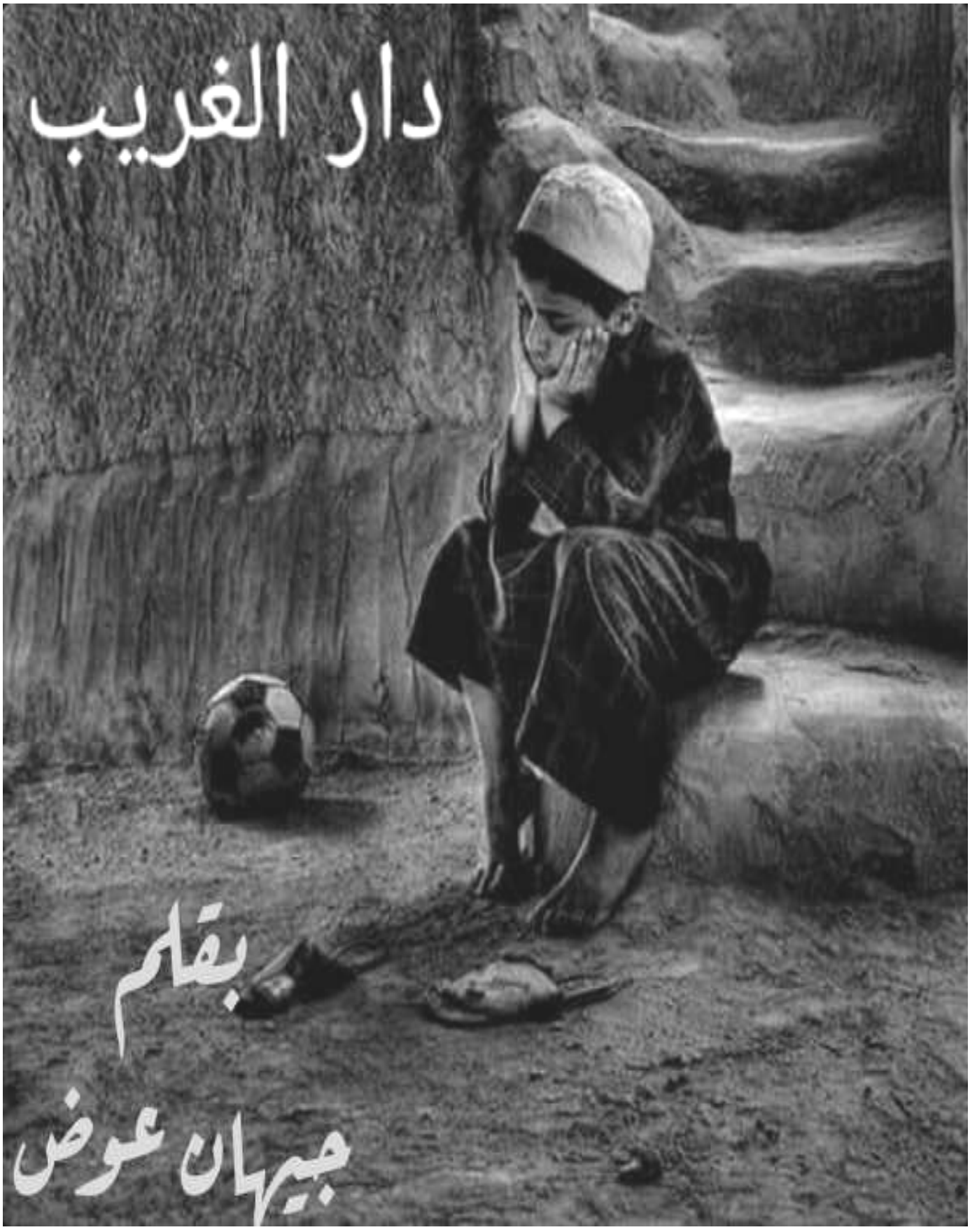
دار الغريب
بقلم
جيهان عوض

سطور من حياة

جيهان عوض البنا

* روائيــة وقاصــة ومحــرَّرة صــحفية بــبعض المجــلَّات والمواقع الإليكترونية، ومحررة ديسك.

* أول عمـل روائـي لـي روايـة الـدّائبان "**الـشمس والقمـر**" ورشــة الــسعادة دار ببلومانيــا للنــشر والتوزيــع معــرض القــاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٩م.

* شاركت بأعمال ورقية جماعية ومجموعات قصصية مثل "**أنامل قصصية**" بقصة "**شعرة بيضاء**" الـصادرة عـن دار لـوتس للنشر الحر، وكتاب "**تنهيدة قلم**" بقصة "**انفصام**" وديوان شـعر جمــاعي"**قــصَّة مــن الكــواليس**" شــاركت بــه بــثلاث قــصائد "**كلمـات، إنـت عـارف، حـوَّاء**" إصـدار دار بنـت الزيـات للنـشر والتوزيع، ولي مشاركة بمجلة المغـارة الورقيـة، وكلمـات مـأثورة الجـزء الأول والثـاني لأدبـاء ببلومانيـا لعـام٢٠١٩، ومـشاركة مـع بعض الأديبات بكتـاب "**فيء الكلمـات في أدب التعليقـات**" ونُـشِر لي بجريدة الموجز العربي الورقية، وأعمال أخرى قيد النشر...

❀ جُلَّ مرامي إبقاء أثر طيب بكلماتي، فكلنا راحلون لا محالة بيد أن الراحل نوعان، نوع يُمحى أثره كإعصار حملت الرمال عن أثر أقدامه فلا أثر وقتها، ونوع قرَّر الخلود، ينحت في الصخر فلا أعاصير ولا أمواج تمحيه، فكلَّنا نستحق أن نخلد، فالجميع مميز بشيءٍ ما، لكن الفرق في اكتشاف المرء لذاته...

❀ للتواصل معي عبر موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك:

دار الغريب

لم يلتهم الطعام كما توقَّعت، أعاده كما هو إلا من لقيمات صغيرة كحجم أنامله، بل لم يَسعد بالغطاء الذي بعثته مع صغيرها "مازن" إليه كي يتدثر به من برد الشتاء القارص، حتى ذلك الودق المنهمر صوب عينيه لم يكن ليعنيه، جُل ما كان يحتاجه تلك الحميمية التي يراها أمامه من أقرانه الأطفال وهم يتجولون مع أبويهم ويتسامرون في الطريق، وتلك الأم التي تُسمي الله عند وقوع صغيرها، ولهفتها عليه رغم عدم إصابته بمكروه، حتى تلك الهرة التي تجاوره وتستقطب بقايا الطعام من هنا وهناك وتأتي لصغارها كي يقتاتوا، يراقب كل هذا وهو قاطن أمام محل عمله الذي استأجره عمه قبل شهر، ولكن ما حدث لم يكن بالحسبان فقد أصاب عمه مرض يستلزم إجراء عملية جراحية بأسرع وقت ممكن فلم يجد غير "غريب" ابن أخيه ليحل محله في هذه الفترة ويعمل بالمحل بعد أن مكث يومًا معه ليُعلِّمه صنعته وإغرائه ببعض النقود التي هو بأشد الحاجه لها، وتركه ورحل إلى بلدته، تركه وحيدًا في بلدة لا يعلم عنها غير هذا المكان المكتظ بالأشخاص الغريبة بالنسبة له، وأترابًا من الصغار يلهون أمامه

دون اكتراث، لا شيء يغزو لَهوهم، لاشيء يعكر صفوهم.

شغل أمر ذلك الطفل بال "حنان" فهي أم لثلاثة أطفال ورثوا عنها حنانها الفيَّاض، وعطفها على المحتاج، فعندما أخبرها ولدها الصغير"مازن" قصة ذاك الطفل الغريب الذي حلَّ بمحل الحلاقة أسفل منزلها والذي يدعى"غريبـًا"، سالت أدمعها على وجنتيها ودون أن تشعر لعنت أبويه، وتساءلت كيف لهما أن يتركوه في بلد غريب وحده، كيف لهما بالأساس أن ينتهكوا براءته ويجعلوه يعمل في هذا السن الصغير؟ ألهذا الحد بلغت القساوة مبلغها بقلوبهما، أم هي الحاجة من ساقتهما إلى زَجهم بابنهما في محيط الحياة فتلاطمه موجاته بلا هوادة، إما أن ينجو أو يرتد غريقًا!

بينما هو قاطن أمام المحل بَقَّت السماء وكأنها تشاطره أحزانه وتواسيه، ليت غيثها يجلي حزنه كما جَلت الطريق، رَمَقَ صبي وحيدًا يَرمَل من أمامه، إنه "سالم" المتسول الصغير، لم يتيقن من ملامحه في ظل ذلك الوابل من المطر الذي يتصبب من السماء، ولكن لم تغب مقلتاه عنه حتى أفل، وتساءل:

-من هذا؟ أظنه غريبـًا، لم أشهده يلهو مع أطفال الشارع من قبل.

لم تدم تساؤلاته كثيرًا فقد أحسَّ بالبرد الشديد فولج إلى محله وأوصد الباب وقبع بين جدرانه الرطبة وكأنما بلَّلته دموعه، وسقفه الذي أعلى من سقف أمنياته التي اختزلت في دفء عائلته في ليلة كتلك الليلة الموحشة، تهاوت أفكاره علي سفح ذاكرته وتطايرت أمانيه كورق خريف خذلتها الرياح فابتعدت بعيدًا، لسان حاله يخاطبه:

-مَن بالعالم أشد بؤسًا مِني؟

وفي ظل هذا التخبط والتآكل في قارعة رأسه، سمع صوتًا ينقر على الباب، ويبدو أنه صادر من أنامل صغيرة، انخلع قلبه، وهو يجيب:

-من؟

جاءه الرد سريعًا:

- "غريب" افتح إنه أنا "محمود"

هرع بفتح الباب وجد "محمود"ابن صاحب المنزل ومعه طعام يبدو من رائحته أنه طيب وهبط من الموقد للتو، ومعطف صوف معبَّق برائحة ذكية.

أخذ منه الطعام والمعطف وانتظر حتى صعد "محمود" إلى

منزله، وهمَّ بغلق المحل إلا أنه رأى ذاك الصبي "سالم" مرة أخرى، فانتظر هنيهة، فاقترب منه قليلًا ونظر له نظرة استجداء، وبرغم ثيابه الرثَّة المرتقة، ووجهه المتهالك، وجسده الهزيل؛ ناداه فَلَبَى النداء فورًا، ودعاه للأكل معه، فتربع أرضًا وبدأ في التهام الطعام إلتهامًا، وكأنما لم يأكل مذ أيام، وغريب يرقبه، لم تبق إلا قضمة واحدة، فاستحى سالم أن يمد يده، الآن فقط أيقن أن "غريبًا" لم يمد يده للطعام البته، ابتسم "غريب" وقال له:

-تفضَّل، هي لك.

نكَس سالم رأسه وأجهش بالبكاء، تلاشت كل أحاسيس الوحدة والوحشة لدى "غريب" وحَلَت محلها شعور بحزنٍ دامٍ، لِما شاهده من ذلك الصبي الأبلق، تيقن آنذاك بوجود من أشد بؤسًا منه، أدركَ أنه غني بما يملكه.

بقدر احتياجه ومعاناته فهو يملك الكثير، وبرغم بُعده عن موطنه إلا أنه يعلم أنه سيعود يومًا ما ليجد من يحنو عليه ويحتضنه، لم تكن قساوة من والديه لِزَجه بعيدًا، ولكن أنَّى له أن يقف مكبل اليدين، ووالده مريض وهو أكبر أخوته، ببلدة لا مجال للعمل فيها سوى الفلاحة التي طالما فشل أبيه في إقناعه

بالعمل بها، ما كان له إلا أن يحمل على عاتقه حمل أسرته، وما إن عرض عليه عمه ليحل محله لبعض الوقت لم يفكر طويلًا بل سارع بالموافقة.

باغته سالم بصوت متهدج:

-أعلم أنك مرتاب مني بعض الشيء ولا ألومك على ذلك فأنا كما ترى متسول أشحذ ما يجود به الآخرون، أحيانًا أجد من يعطي، وأحايين أخرى لا أجد ما أقتات عليه، لا أتذكر شيء، كل ما أتذكره أني أفقت بهذي الحياة دون زاد، دون رفيق، كشجرة في فلاة بأرض جدباء...

صمت هنيهة وأردف قائلاً:

-لم يكن لدي خيار آخر، فُرض عليَّ الأمر، فكيف لي أن أواصل حياتي، أنَّى لي أن أحيا دون مد تلك اليدين، دون السؤال! وأردف قائلًا:

-أبغض نظراتهم، أُمقت كلماتهم اللاذعة، أكره قلوبهم الضنينة، أهَاب بطشهم، جُلهم يرفضون وجودي.

أتعلم؟ هذه البلدة لي فيها ثلاث ليال ولم أذق فيها الزاد، تخيَّل!

قاطعه "محمود" جاء وهو حامل كوبًا من السحلب الساخن، وقال:

-تفضل واعطني الأطباق إن كنت فرغت من الطعام، فناوله الأطباق وأخذ كوب السحلب.

صعد "محمود" وحكى لوالدته عن الغلام الذي يجلس مع "غريب" فصنعت كوبًا آخرًا من السحلب سريعًا ونزلت بصحبة ابنها لتكتشف الأمر بنفسها، فوجدت سالم يرتشف من السحلب الساخن، و"غريب" يرقبه متبسمًا.

ألقت السلام ومدَّت يدها لتعطي كوب السحلب "لغريب" فهذه المرة الأولى التي يرى فيها "حنان" سيدة المنزل، أخذ منها الكوب ونظر لها بامتنان.

سرد كلٌ منهما قصته لها، كسجال بلحنٍ حزين، وهي لا تكف عن البكاء، تنتحب كمن مات لها عزيز، رَفقَا بها وبقلبها الرقراق وكفّاَ عن مواصلة الحديث، وهي لا تدري ما كل هذا؟ وأي رثاء ترثيه بهما! وكيف تهدهد قلوبهما الغضة؟

باتت ليلتها تفكر بمأساة الطفلين، وبما يمكن أن تُسدي لهما؟

هداها الله لتلك الفكرة الطيبة، ساقها إليها انسياقًا، فكما هم يحتاجون من يمد لهم يد العون، هي أيضًا تحتاج لمن يجعلها وسيلة لفعل الخير، كم كان حلم عملًا صالحًا كصدقة جارية يراودها طيلة الفترة الماضية، الآن قد تبيَّن لها ماذا عليها أن تفعل، لم تقتصر الفكرة لمساعدتهما فحسب!

مؤكد وجود حالات مشابهة وأشد سوءً من تلك التي ساقها إليها القدر، باحت بما يجول بخاطرها لزوجها وشريكها "شريف"، فكلاهما متفقان في الإنفاق ابتغاء مرضاة الله، كثيرًا ما كانت تلح عليه ببناء مسجد على قطعة الأرض التي تمتلكها وكأن القدر اختار ما كان ليجول بمخيلتهما، تغيَّرت بوصلة تفكيرهما، عدَّلا عن مسارهما لبناء مشروعًا خيريًا، دار رعاية للأيتام ولمن لا مأوى له، بعد صلاتهما صلاة استخارة.

همَّت في الصباح والشمس تدثر المنزل بدفئها، تنثر خيوطها الذهبية كما لو أنها لم تُمطر بالأمس، عازمة على فعل ما ظلَّت تفكر به طيلة الليل مع سندها وداعمها ومستشارها القانوني "شريف".

ذهبا لتسجيلها بشكل رسمي، والحصول على جميع الموافقات الإدارية اللازمة لإنشائها، لتكتسب الأهلية القانونية للقيام بعملها.

وهاهي في أولى خطواتها لتحقيق حلمها، حلم الارتقاء بالنفس البشرية، حلم الذكرى الخالدة،حلم الأثر الطيب، ثمَّة أمل يشرق ليسمو بروحها.

بينما هما في طريقهما سألها:

-ماذا تنوي أن تسمي المشروع؟

صمتت هنيهة وأردفت والبسمة تعلو ثغرها:

- "دار الغريب"

تمت بفضل الله

رسالة إلى مجهول...

عزيزي المجهول تحيَّة طيِّبة...

أمَّا بعد...

إلى كل هاوٍ وممتهن بساحة الأدب اجتمعوا، إلى الجمع وإن تفرَّق، فلكلٍ منكم وجهة ومنهاجًا، ولكلٍ هدفه المتباين، فبين أزقة الأدب من يدس لنا العسل دساً بين طيات كلماته، فلله در من كتب حرفاً يسمو به في سماء الأدب يسطع بألق كلماته وسنا فكره، يُرسي فلسفته الخاصة ويهديها بين دفتي كتاب لقارئه دون جهدٍ أو عناء؛ وخاب وخسر من عرج وانتهج الغث والقميء من الكلم يروم به سمعة وشهرة سريعًا ما تخفت وتندثر.

من يسطر اليوم كان بالأمس قارئ نهم وتخمَّرت الأفكار المبيتة بعقله وجنحت إلى أن آلت إليه وفَرّشت صفحاته البيضاء لتصبح لوحة فنية ربَّما بديعة أو ساحرة أو حتى نافرة للناظرين؛ تختلف الذوائق وربما تتناقض هذا هو الحال.

إلى من يقف على أعتاب الساحة، إن أردت أن تعتلي عرش الرفعة فاعتني بقلمك واقرأ ثم اقرأ ثم اقرأ وانهل من العلم ما استطعت ولا تلج إلا وسلاحك بتَّار تشهر به لأعلى، ولا تكشف عن ساقيك فالساحة ليست صرحًا ممردًا من قوارير كما تعتقد هي فقط تُسحِر اللب وتنساق لها الأرواح...

إليَّ وإن كنت من البعض، أرى أن القشور ما هي إلا وهم وعلينا أن ننبش الأعماق لننهل الحقيقة والذهن حصيف لا يخطأ، علمتُ أن من البيان لسحر فوضعت لافتة صوب عيني مفادها (اللهم اجعل ما أخطَّه حُجةً لي لا عليَّ) فاللهم ثباتًا ونظر ثاقب لا يخفت...

محبَّتي الأبدية

المُخلصة

جيهان عوض